اثبات الروح بالمباحث النفسية

خاتمة

١٣

امتاز الانسان عن جميع الاحياء التي تشاطره الوجود على هذه الارض ببعد مدى النظر العقلي وبرقي الاستدلال والاستقراء وعدم وقوفه من هذه الخصائص عند حد. وقد كافأت هذه القوى فيه تجرده عن الاسلحة الجثمانية لحفظ وجوده بين الاحياء التي تنازعه البقاء واستظهر عليها بسعة حيلته وقدرته على الابتكار. وسخرها لحاجاته فوجد فراغاً من الوقت للتأمل في نفسه ليعرف مصدرها ومصيرها وفي الكائنات ليدرك مساتيرها وفي الطبيعة ليقف على القوى او القوة المنظمة المدبرة لها

لم يكن الانسان بالكائن الذي يتصل لقوى الكون صاغراً لها ويخضع لعواطفه لاهياً عنها فاخذ يفكر اولاً في علل العاديات التي تصيبه في ذاته واهله وجماعته ويبتغي تذليل او الوجود عامر بعوامل خافية محجوبة عن بصره وان ظاهر عواطفه واهواء من نوع عواطفه واهوائه فشرع يتقرب اليها بالعبودية ويتزلف لها بالقرابين الحيوانية والبشرية جلباً لمراضيها وتجنباً لمساخطها فكان هذا اصلاً لتدينه ولبحثه فيما وراء المادة المحسوسة

اطّرد الانسان طريقة في الترقي فكان كلما ازداد علماً بالكون والكائنات ونما ادراكه للنسب والمعلولات ورقي شعوره بالحقوق والواجبات لطف من عقائده بتلك العواطف وهذب من مدركاته في صفاتها حتى وصل الى توحيدها وتنزيهها وجد في التوفيق بين ما يمليه اليه العلم الحسي وبين ما يوجبه عليه النظر العقلي حتى كان له بازاء العلم الطبيعي علم لاهوتي. ولكنه ما كاد يصل الى هذه المرتبة العقلية حتى عرضت له مشكلات في مدارك الشعور وتعمر رأسه بالارادات والاستشكالات وهي من لوازم الاعمال العقلية فتجاراً بعض آحاده على نفي القوة العاقلة المدبرة للكون والناس في تعليل الوجود بالقوانين الطبيعية المحضة. الا ان اولئك الآحاد لم ينجحوا في نشر مذهبهم بين الدهماء لغلبة سلطان العقائد على الاذهان وسيادة العواطف الكلامية لاهواء الانسان

بدأت هذه النزعة المادية حوالي القرن الخامس قبل المسيح و بقيت مقصورة على بعض المفكرين هدفاً لتجريح الدينيين والاعتقاديين من الفلاسفة الرسميين. وتشدد حفظة العقائد في تعقب اصحابها في بعض الادوار تشدداً ليس له مثيل في تاريخ التطورات العلمية وازدادوا في الوقت نفسه جموداً على تعاليمهم وعداء لحرية البحث والنظر حتى اختنق العقل الانساني تحت آصار التقييد وحميت سبل التأمل على الناظرين وظل العالم الغربي على هذه الحالة نحواً من الف سنة حتى كانت فتنة الحروب الدينية بين البروتستانت والكاثوليك وما نشأ عنها من وحدة الدينيين فتجرأ الفيلسوف الايطالي بطرس بومبانيوس سنة (١٥٩٦) على التصريح جهاراً بانكار الروح وبعدم امكان حدوث الاعمال العقلية بدون جسد وتلاه جسندي سنة (١٥٩٢) فاحيا مذهب ديموكريت المادي اليوناني في الجواهر الفردة وتلاهما توماهوبس من كبار فلاسفة الانجليز ولكنه اضطر للهرب من انجلترة خوفاً من بطش الدينيين

فلما جاء القرن الثامن عشر كان الجو اكثر ملاءمة لنشر الفلسفة المادية فنبغ دافيدهيوم في انجلترة ناصراً لها وأيده في فرنسا كوندياك ودولامتري وديدرو وفي المانيا البارون هولباخ . ولم يهل القرن التاسع عشر حتى كان للفلسفة المادية دولة قوية الشوكة ولاسيما في المانيا دخل تحت لوائها اكثر اذكياء الامم في عشرات قليلة من السنين لانها اعتبرت تحريراً للعقل من أسر الاضاليل الموروثة . وزاد الماديين تبجحاً بنظرياتهم جمود رجال الدين على عقائد تناقض بداهة العقل واحتفاظهم بآراء ظهر بطلانها بالحس ومصادماتهم للعلم مصادمة لا هوادة فيها مع ظهور أثره الباهر في ترقية الحياة الانسانية وتخفيف ويلاتها المجة

فلما ظهر مذهب داروين سنة (١٨٥٩) تلقاه الماديون بالتصفيق الحاد وعدوه ضربة قاضية على كل مذهب يناقض المادية لاقامته الدليل القاطع على ان الكون سائر على نظام آلي محض وأنه ماديون على تعليل كل ظاهرة وظاهرة في الكون بالنواميس المادية البحتة متشددين في انكار كل ما عداها من عقل مدبر أو عالم روحاني فكان كل ما يرى طبق نظرية التي خص بها تاريخ العالمين ويشير الى وجود قوى تعمل في الكون من غير طريق النواميس الآلية يعدونه من خرافات الاقدمين واكاذيب المتنبئة والمشعوذين

فكان اذا تجرأ متجرئ على التصريح بوجود عالم وراء المادة صاح به الماديون من كل مكان قائلين له : أنتهيت اليه فانت تخبر عنهُ عن عيان ام سلمت به انصياعاً لاضاليل الكهان ؟ وان تجاسر متكلم على القول بوجود روح في الانسان نظر بعضهم الى بعض يتغامزون ثم قالوا له وهم يتضاحكون : لا تصدق الا ما تراهُ بعينيك وتلمسهُ بيديك والا فخذ بكل ما يقال وهيىء ذهنك لقبول كل خيال

هنا تقوضت دولة المنطق وانهارت اركان النظر العقلي وأصبح الحكم المطلق للحس والعيان واين منهما المتكلمون في العالم الروحاني والنفوس المجردة عن المادة ؟ أدرك الباقون من اشياع دولة الروح ان الخطب جلل وان العثبات التي تعترضهم لا تذلل فادركهم الشك هم الآخرين وتحرّج موقف حفظة الاديان وسرت اليهم عدوى التعاليم المادية فاصبح وجودهم في وظائفهم مبنيًا على المصلحة الشخصية لا على العقيدة الدينية

كان كل هذا ولم تبطل في دور من تلك الادوار تلك الامور الخارقة للعادة الدالة على وجود عالم روحاني محجوب وراء هذا العالم المادي المشهود من حدوث حوادث في بعض الدور تدل على وجود عوامل عاقلة مستترة عن العيون وظهور اشباح متجسدة للمستعدين لرؤيتها وسريان ارواح النائمين ووقوفها من هذا الطريق على ادراك كثير من الشؤون المغيبة . ولكن من الذي كان يستطيع في دور غلبة المذهب المادي في القرنين السابقين أن يرفع بهذه الامور رأساً او يحرك بها شفة وألسنة المتهكين مترصدة واقلام الناقدين مترقبة تشن على كل متكلم فيها غارات لا تبقي ولا تذر أقلها ان تسلبهُ كرامتهُ بين العارفين وتعدهُ في زمرة المخرفين حتى ان الطبيب (مسمر) الالماني لما وقف على سر التنويم المغناطيسي في حريات القرن الثامن عشر وهو الفن الذي كان يمارسهُ المصريون والهنود والصينيون منذ الوف من السنين وعالج الوفاً من الذين كان قد حكم الاطباء على امراضهم بالاعضال سلقه الناقدون بألسنة من نار ووصموهُ بالتدجيل والشعوذة وحطوا من كرامته كل الحط حتى امضى بقية ايامهِ مرذولاً منبوذاً مخلفهُ في التجارب جمهور من الاطباء وغيرهم فلم يكونوا احسن حظًّا منهُ . وألفت جمعية العلماء

الفرنسية لجنة لبحث هذا التنويم المزعوم . . . فقررت بعد التجارب المدققة . . . انهُ زور وبهتان وان القائلين بهِ مدلسون أو اغبياء . فظل انصاره مئة عام يقرعون التهم الكلامية بالتجارب العملية حتى اضطروا تلك الجماعات الرسمية المسماة بالجمعيات العلمية الى اعتباره فرعاً من العلوم المقررة . ولكن تلك المادية الموروثة لم تسمح لهم ان يقروا منهُ الاَّ ما لا يناقض مذهبهم وغضوا الطرف عن مشاهداتهِ العالية التي تثبت وجود الروح بالحس لكل مجرب فيهِ

ظل العلماء في هذه الخيلاء الفكرية كل القرن الثامن عشر والنصف الاول من القرن التاسع عشر وبات الناس تبعاً لهم مفترنين بتلك المقررات العلمية الناقصة متخيلين انهم حلوا مستير الكون وتمكنوا من تعليل كائناتهِ تعليلاً آلياً محضاً حتى هدأت ثائرة هذا الدور الانتقالي وسكنت فورة الفرح بالجديد فاخذ العقل البشري يبشر بما حصلهُ بعد كل هذا الجهاد الجهيد نظر نقد وتمحيص وقد صحا من نشوتهِ وسكن من هزتهِ فاذا بهِ لم يبرح موقفهُ الاول اللهم الاَّ علما ببعض الظواهر واكتشافاً لبعض البسائط . اما من جهة ما كان يزعمهُ من ادراك سر الطبيعة ووقوفهِ على آثار العلل الاولية فوجد انهُ قد انخدع بالفاظ بعدت بهِ عن مجال الفلسفة العملية التي ارتضاها اسلوباً لبحثهِ اشواطاً بعيدة حتى اشبه الخياليين الذين طالما تبجح عليهم بحصولهِ وتعالى عليهم باصولهِ . وجد ان المادة لا تزال مجهولة وان القوى التي دعاها ميكانيكية مقررة لا تعدو النظريات الظنية وان العلل التي فسر بها الوجود ظواهر خداعة لا ينطبق التعويل عليها على اسلوبهِ وان تلك النواميس العليا التي علل بها عالم الاحياء والتنوعات البيولوجية كناموس الانتخاب الطبيعي والوراثة معلولة لا يصح ان يركن اليها الاَّ اذا اراد ان يتوه على نفسهِ . وقد اوجز هذا الموقف من الحيرة العلمية الاستاذ المشهور (جوستاف لوبون) في كتابهِ تحول المادة فقال :

« كل نظرياتنا العلمية العظيمة ليست بقديمة العهد جداً فان تاريخ العلم التجريبي المحقق لا يصعد الى ابعد من ثلاثة قرون . وفي هذا العهد القريب قريباً نسبياً حدث دوران مختلفان من ادوار التحول في افكار العلماء

« فالدور الاول كان دور الثقة وهو الذي تكلمت عنهُ آنفاً . فكانت المقررات الفلسفية والدينية وهي قواعد مدركاتنا القديمة على الوجود تضمحل وتزول ببطء

امام الاستكشافات العلمية التي تتوالى كل يوم ولاسيما في النصف الاول من القرن الاخير . فاكنت تسمع من يرفع عقيرتهُ بشكوى . وكيف يشكى من احلال الحقائق المطلقة محل اوهام المعتقدات القديمة . فكان يظن مؤسسو كل علم جديد انهم يحدون لهُ الدوائر النهائية التي لا يمورها غير سد ما فيها من الفرغ . وكان يخيل اليهم انهم متى اتموا بناء الصرح العلمي استمر هذا الصرح قائماً على انقاض اوهام الزمان الماضي . فكانت الثقة العلمية في هذا الدور على اتم ما تكون

« دامت هذه الثقة في المقررات الكبرى للعلم العصري حافظة لقوتها الى ان حدثت في الايام الاخيرة استكشافات غير منتظرة قضت على التكر العلمي بان يكابد من الشكوك ما كان يعتقد انهُ قد تخلص منهُ الى ابد الآبدين . فان الصرح العلمي الذي كان لا يرى ما فيهِ من الصدوع الاَّ عدد قليل من العقول العالية تزعزع فجأة بشدة عظيمة . وصارت التناقضات والمستحيلات التي فيهِ ظاهرة للعيان بعد ان كانت من الخفاء بحيث تكاد لا تبلغها الظنون

« ادرك الناس على عجل انهم كانوا مخدوعين واسرعوا يتساءلون عما اذا كانت الاصول المكونة للمقررات اليقينية لمعارفنا الطبيعية لم تكن الاَّ فروضاً واهية تحجب تحت غشائها جهلاً لا يسبر لهُ غور . فحدث اذ ذاك في العقائد العلمية مثل ما كان حدث قبل ذلك للعقائد الدينية عند ما شرعوا في مناقشتها الحساب اذ سبقت ساعة النقد ساعة الانحطاط ثم تلاها دور الزوال والنسيان

« لا مشاحة في ان الاصول التي كان العلم يختال بها اختيالاً لم تزل كل الزوال بل هي ستبقى امداً طويلاً في نظر الدهماء كحقائق مقررة وستستمر الكتب الابتدائية في نشرها ولكنها فقدت كل ما كان لها من الاجلال في نظر العلماء الحقيقيين

« وقد كتب المسيو (لوسيان بوانكاريه) من جهتهِ يقول : « لا توجد لدينا نظريات عالية الآن يمكن قبولها قبولاً تاماً ويجمع عليها المجربون اجماعاً عاماً . بل يسود اليوم على عالم العلوم الطبيعية نوع من التوضي . وقد اتسع المجال للافتراضات الجريئة ولم يظهر ان ناموساً من النواميس يمكن اعتباره ضرورياً ضرورة مطلقة . فنحن نشهد في هذه الآونة اعمالاً هي اشبه بالهدم منها باقامة بناء نهائي . فالآراء التي كانت تظهر لمن سبقنا انها تأسست تأسساً ثابتاً صارت اليوم لدينا موضوعاً للمناقشة . وقد رفض اليوم على وجه عام الرأي القائل

بان كل الظواهر الطبيعية تقبل تعليلات ميكانيكية . فان اصول علم الميكانيكا نفسها صارت مشكوكا فيها. وقد شوهدت حوادث جديدة زعزعت ثقتنا المتعلقة بالقيمة المطلقة للنواميس التي اعتبرت الى اليوم كأنها اساسية » انتهى كلام العلامة لوسيان بوانكاريه

ثم عاد الاستاذ (جوستاف لوبون) فقال :

« ولكن من حسن الحظ لا شيء اكثر ملاءمة للترقي العلمي من هذه النقوض الحالية . فالوجود مفعم بمجهولات لا تراها . والحجاب الذي يحجبها عنا مسموج غالباً من الآراء الضالة او الناقصة التي توجبها علينا تقاليد العلم الرسمي . قد دلنا التاريخ على مبلغ تأثير النظريات العلمية في تأخير الترقي متى حصلت على درجة معينة من الجمود . فلا يمكن والحالة هذه احداث خطوة واحدة الى الامام الاّ بعد تفكك الآراء السابقة. فان تعيين ضلالة واحدة وتتبع نتائجها يساوي احياناً حدوث استكشاف جديد فالاشد خطراً على تقدم العقل الانساني هو تقديم الظنيات للقارئين لانها حلل الحقائق المقررة على نحو ما تفعلهُ الكتب المدرسية والتطاول لوضع نخوم للعلم ورسم حدود لما يمكن معرفتهُ كما كان يريد ذلك اجوست كونت » انتهى

ونحن نقول بعد هذا التمهيد : لما وقف العقل الانساني في شخص رجال العلم العالي هذا الموقف من النظر الصادق والادراك الصحيح والتواضع الجدير به وهو في وسط هذه اللجة من المجاهيل العالمية حرم على نفسه الركون على اصل وكونا مطلقاً مهما زين لهُ الخيال انهُ ثابت لا ينقض والقى عن عينه تلك الغشاوة التي كانت تمنعهُ من النظر في كل ما يخالف مقرراته الموروثة وعلم هذا الدرس القاسي من الانخداع عدم التسليم لغير ما يقع تحت حسه بالتجربة فما كاد يبلغهُ وجود حادثة من حوادث ما وراء المادة يمكن تحقيقها بالاسلوب التجريبي حتى بادر الى تمحيصها ولم يأنف من اعلان حقيقتها . ولم يستكبر جماهير من العلماء شابت نواصيهم في المباحث المادية وملايين من الاذكياء والفضلاء جمدوا على الالحاد وتربوا في مهده أن يهتموا بدراستها مجتمعين ومتفرقين وان يصرحوا بما رأوهُ غير هيابين ولا مترددين

هذا سر تقاطر رجال العلم العالي واراكين النهضة العصرية على بحث مشاهدات ما وراء المادة وامعانهم في هذا السبيل بتهمة لم تعهد في تاريخ العلم الى اليوم . ولكن ما ابعد الشرقيين عن مثل هذا الموقف الجليل من التواضع والتعطش للحقيقة . انهم لا يزالون في دور الغرور بالنظريات العلمية الناقصة والتبجح بمقررات الفلسفة المادية البائدة متوهمين أن ذلك منتهى العلمية واقصى غايات الضلاعة العقلية . ولا يدري الاَّ الله كم مقدار الامد الذي يمضونهُ في هذا الدور الخادع سهل الله عليهم الانتقال منهُ

ومما تلفت اليهِ هنا ان البحث في المشاهدات الروحية ليس يوقف على العلماء بل تناولتهُ جميع الطبقات من اطباء ومهندسين واصوليين وصحفيين وماليين وغيرهم ممن يعدون بالملايين تألبت كل هذه العقول البشرية على تحقيق حوادثها فلم تزدد الاَّ وضوحاً حتى صارت اليوم في عداد الامور الحسية التي تمتحن بالآلات المعدنية . ثبت من مجموع هذه الابحاث ان وراء هذه المادة المحسوسة عالماً اعلى منهُ عامراً بالكائنات العاقلة وان الانسان متى اتم العمر المقدر لهُ هنا انتقل الى ذلك العالم بما حصلهُ من علم واختبار وتابع فيهِ طريق ترقيهِ حاملاً جسداً اثيرياً لا يعدو عليهِ التحول ولا الفناء وانهُ لا يزال يترقى حتى يصل الى درجات عجز عن تخيلها حتى الارواح المجردة العالية التي تتصل بالباحثين بالطرق التي بيناها هنا

هذه العقيدة لم يحصل عليها العقل العصري من طريق الدين ولا من طريق المنطق ولكن من الطريق العلمي التجريبي المعروف . وقد تردد في قبولها عشرات من السنين قلبها فيها على كل وجه وسرّى عليها كل اسلوب من التمحيص حتى صارت هي والحسيات في مستوى واحد . فاخذ بها كما يأخذ بالعلم الطبيعي الذي تهديهِ اليهِ الحواس بل هي من العلم الطبيعي وانما سميت وراء الطبيعة لانها لم تكن في دائرة البحث العلمي . الى اليوم وقد تناولها الاسلوب العلمي التجريبي فهي من صميم العلوم الطبيعية مثل الكلام فيها كمثل الكلام في اشعة رونتجن وخصائص الراديوم . وقد اعتبر العقل الانساني وقوف العلم على آثار هذا العالم الروحاني انتقالاً منهُ من دور الحرج والنقص الى دور السعة والتكمل فانهُ وصل بهِ بين شطري الوجود اي بين شطرهِ المدرك بهذه الحواس القاصرة وبين شطرهِ

المحجوب عنها . ولا يخفى ان المحجوب عنها هو مستقر القوى المؤثرة ومسرح العوامل المكونة . فتم لهُ بذلك وصل ما يجب ان يكون موصولاً ليجد العلم المجال امامهُ مطلقاً فلا يقف حيال كل مسألة من المسائل التي يتحرق الانسان لادراكها حائراً ثم يرتد عنها معترفاً بانهُ امام مجهول لا يسبر لهُ غور . بهذا الوصل بين شطري الوجود انحلت مسألة من اكبر المسائل الانسانية وهي التناقض المؤلم القديم بين العلم والدين . فتحول الدين عن اسلوبهِ المعروف من التسليم بالغيب والجولان في متاهات الآراء التدعية الى ادراك صحيح مبني على الاسلوب العلمي العصري . فتوحدت وجهتا الانسان . فبعد ان كان امامهُ عقيدة وعلم على طرفي نقيض اصبح امامهُ علم محض جامع لجميع ميولهِ الجسدية والروحية . اركانهُ المشاهدة والتجربة وعمادهُ النظر والاختبار لا يأتيهِ الباطل من بين يديهِ ولا من خلفهِ ولا ينابذ فيهِ الاَّ من خادع نفسهُ

هذا عهد للانسانية تصغر كل عبارة عن وصف جلالهِ وجمالهِ ويعجز كل خيال عن تقدير آثارهِ في ترقيتها وايصالها من فهم الحقائق الكبرى الى ما تتوجه اليهِ بكليتها . ولا يمكن تصوير ما يبتنى على ذلك من طهر النفوس وسمو الاخلاق وبعد الغايات وتلاشي الفوارق الجنسية والدينية والشعور بالسعادة الحقة والطمأنينة الكاملة واعتبار الموت كما هو في الواقع ترقياً من عالم نقص الى عالم كمال وانتقالاً من سجن الحواس القاصرة الى بحبوحة الاطلاق المنزه عن القيود

هذا هو العهد الذهبي الذي طالما تخيلهُ الانسان في كل زمان ومكان فليعمل لهُ العاملون ولا يقف في سبيلهِ الشاكون بل ليقرأوا ما كتبهُ اشياعهُ وليجربوا ما جربوهُ فقد وضح الصبح لذي عينين وملأ نورهُ الخافقين

وقد اتينا فيما نشرناهُ في المقتطف على صورة مصغرة لشاهدات هذا الفتح الالهي وسردنا كثيراً من شهادات مجربيها ولم ندع وجهاً من وجوه بيان مسائلهِ الاَّ اتينا عليهِ او اشرنا اليهِ حتى صارت مقالاتنا هذه كافلة لدحض كل شبهة تقام ضدها فان فيها لكل ما يكتب في توهينها ردّاً مقنعاً ولكل ما يستشكل بهِ عليها بياناً وافياً يدركهُ من يراجع تلك المقالات عندما تثور بهِ شبهة او يقرأ في تحقيرها مقالاً . والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم

محمد فريد وجدي